مخطوط الدكتور مانت

بقلم تشارلس دكنز

ترجمة الأستاذ محمد بدران

كل من قرأ قصة مدينتين تأليف الكاتب الإنجليزى الكبير تشارلس دكنز يذكر بلا ريب بطلها الدكتور مانت سجين الباستيل الذى قضى شطراً كبيراً من حياته فى إحدى حجرات هذا السجن السياسى المظلمة التى أنسته كل شيء عن ماضيه ؛ فلم يكن يذكر إلا رقمه فى السجن وعمله فى صناعة الأحذية . والدكتور مانت — وإن كانت شخصيته خيالية ابتدعها عقل دكنز — مثل صحيح لنزلاء السجن السياسى الذى كان المسجونون يزجون فيه لذنب أو لغير ذنب يقضون فيه حياتهم ولا يعلم أحد شيئاً عن مصيرهم . وكان من أكثر أجزاء هذه القصة أثراً فى النفس المذكرات التى كتبها مانت قبل أن يذهب طول سجنه بعقله ، وها هى ذى المذكرات مقتبسة من هذه الرواية الخالدة .

أنا ألكسندر مانت ، الطبيب البائس ، من أهل بوقيه ، والمقيم بعدئذ فى باريس ، أسطر هذا المخطوط المحزن فى حجرتى الانفرادية المظلمة بسجن الباستيل فى الشهر الأخير من عام ١٧٦٧ . وأنا أكتبه فى أوقات أختلسها اختلاساً ، وألاقى فى ذلك أشد الصعاب ، وسأخفيه بعد كتابته فى جدار المدخنة حيث أعددت له بعد عمل شاق دام زمناً طويلا مكاناً أودعه إياه ، لعل يداً رحيمة تعثر عليه بعد أن أستحيل أنا وأحزانى تراباً .

وأنا أكتب هذه الألفاظ بسن حادة صدئة وبمداد مصنوع من سناج الفحم أنتزعه من المدخنة وأمزجه بدمى ، وذلك فى الشهر الأخير من السنة العاشرة من سنى سجنى ، وأعانى فى كتابتها صعاباً جمة ، وأنا موقن من النذر الرهيبة التى تبينتها من نفسى أن عقلى لن يظل سليما زمناً طويلا ، ولكننى أعلن صادقاً أنى الآن مالك لكل قواى العقلية ، وأن ذاكرتى سليمة صافية دقيقة ، وأنى حين أدون هذه الألفاظ الأخيرة لا أكتب إلا الحقيقة التى سأسأل عنها يوم الحساب أمام الواحد الديان سواء قرأها الناس أو لم يقرءوها .

* * *

كنت فى ليلة مقمرة غائمة فى الأسبوع الثالث من ديسمبر — أظنها ليلة اليوم الثانى والعشرين منه — فى عام ١٧٥٧ ، أسير فى مكان منعزل على رصيف نهر السين ، أستنشق الهواء البارد على مسير ساعة من مسكنى فى شارع مدرسة الطب ، وبينما أنا سائر على هذا النحو إذ أقبلت من خلفى عربة مسرعة ، فتنحيت جانباً لأفسح لها الطريق ، خشية أن نصطدم ، ولكن رأساً أطل من نافذة العربة ، وانبعث منه صوت يأمر السائق بالوقوف .

ووقفت العربة بأسرع ما يستطيع السائق جذب جواديها ، ونادانى ذلك الصوت نفسه باسمى ، فرددت عليه ، وكانت العربة فى أثناء ذلك قد تقدمتنى بحيث وجد الرجلان فسحة من الوقت يفتحان فيها بابها وينزلان قبل أن أصل إلى مكانها . ولاحظت أنهما يلبسان معطفين ، وبدا لى أنهما يخفيان شخصيتهما ، وألقيت نظرة عليهما وهما يقفان متجاورين قرب باب العربة فخيل إلى أنهما فى نحو سنى ، أو أقل قليلا ، وأنهما متماثلان فى طول القامة ، وفى مظهريهما ، وصوتيهما وفى وجهيهما (على قدر ما استطعت أن أتبينه وقتئذ) .

وقال أحدهما : « هل أنت الدكتور مانت ؟ »

فأجبت : « نعم ».

وقال الآخر : « الدكتور مانت الذى كان يقيم من قبل فى « بوڤيه » ، والطبيب الشاب ، الذى كان أولاً إخصائيًّا فى الجراحة ، والذى أخذت سمعته تنتشر فى باريس خلال السنة الماضية أو السنتين الماضيتين ؟ ».

فأجبتهما قائلا : « نعم يا سيدىَّ ، أنا الدكتور مانت الذى تفضلتما بذكر اسمه مقروناً بالثناء عليه » .

وقال أولهما : « لقد ذهبنا إلى مسكنك ، فلم يسعدنا الحظ بوجودك فيه ، وقيل لنا إنك فى أغلب الظن تتنزه بالقرب من هذا المكان فجئنا فى أثرك لعلنا نلحق بك ، فهل تتفضل بركوب العربة ؟ » .

وكان كلاهما صارماً فى مظهره ، ولما نطق أولهما بما نطق به تحرَّكا حركة أصبحت معها واقفاً بينهما وبين باب العربة ؛ وكانا مسلحين ، أما أنا فلم يكن معى سلاح .

وقلت لهما : « معذرة يا سيدىَّ ، لقد اعتدت أن أسأل : من ذا الذى يتفضل فيطلب معونتى ؟ وما نوع المرض الذى أدعى لعلاجه ؟ » .

وأجاب الرجل الذى تحدَّث فى المرة الثانية عن هذا السؤال ، فقال : « إن مرضاك يا دكتور من ذوى المكانة ، أما عن نوع المرض الذى يتطلب معونتك فإنا لا نرتاب أبداً فى أنك ستعرفه بنفسك خيراً مما نستطيع أن نصفه لك ؛ حسبك هذا ، وتفضل بركوب العربة » .

ولم يسعنى إلا أن أجيبهما إلى طلبهما ، وركبت معهما فى صمت ، وركب كلاهما بعدى ، وقفز الأخير منهما إلى داخل العربة بعد أن رفع سلمها ، وعادت العربة أدراجها ، وانطلقت بسرعتها السابقة .

وأنا أذكر هذا الحديث بنصه ، ولا يخالجنى شك فى أن كل كلمة من كلماته هى التى قيلت بالفعل ؛ وكذلك أصف كل شىء كما وقع ، وأركز عقلى حتى لا يشرد عن الموضوع . وإذا كان فى هذه المذكرات نقط تدل على عدم اتصال الحديث فسبب ذلك أنى أقف عن الكتابة مؤقتاً لأضع الورقة فى مخبئها . . . .

واجتازت العربة الشوارع وتركتها من خلفها ، ومرت بالحاجز الشمالى ، واندفعت فى الطريق الريفى . وبعد أن قطعت نصف فرسخ — وهى مسافة لم أقدرها وقتئذ ، بل قدرتها فيما بعد حين اجتزتها — خرجتْ عن الطريق الرئيسى ، ووقفت عند باب بيت منعزل عن سائر البيوت ، ونزلنا منها نحن الثلاثة ، ومشينا فى طريق ضيق لين مرطوب فى حديقة حيث نافورة مهملة ترسل الماء حتى وصلنا إلى باب البيت ، ولم يفتح الباب على الفور ، حين دق الجرس ، فلما فتح لطم أحد الرجلين اللذين كانا معى الرجلَ الذى فتحه على وجهه بقفازه السميك .

ولم يكن فى هذا العمل شىء يسترعى نظرى بنوع خاص ؛ فقد رأيت من قبل بعض العامة يضربون أكثر مما تضرب الكلاب ، ولكن رفيقى الآخر كان هو أيضاً مغضباً ، فضرب بيده الرجل الذى فتح الباب ، وكان الأخوان متماثلين فى مظهرهما وسلوكهما تماثلاً أدركت معه لأول مرة أنهما توءمان .

وكنت منذ اللحظة التى نزلت فيها من العربة عند الباب الخارجى — الذى وجدناه مغلقاً ، ففتحه لنا أحد الأخوين ثم أغلقه بعد أن دخلنا — أسمع صراخاً منبعثاً من إحدى الحجرات العليا ، وأخذت من فورى إلى هذه الحجرة ، وكان الصراخ يزداد شدة كلما صعدنا الدَّرَج ، فلما دخلتها وجدت فيها امرأة مريضة مصابة بحمى مخية ، مستلقية على سرير .

وكانت المريضة ذات جمال بارع ، وفى مقتبل العمر ، لا تزيد سنها كثيراً على عشرين ربيعاً ، وكان شعرها منفوشاً ومقطوعاً بعضه ، وذراعاها مشدودتين إلى جانبيها بأربطة ومناديل يد . ولاحظت أن هذه القيود كانت كلها منتزعة من ملابس رجال ، وأن أحدها —

وهو طيلسان ذو أهداب مما يلبس فى الحفلات — يحمل شعار أحد النبلاء وحرف ا .

شاهدت هذا فى الدقيقة الأولى أثناء بحثى حال المريضة ؛ ذلك بأنها فى محاولاتها المضطربة كانت قد انقلبت على وجهها عند طرف سريرها ، وأدخلت طرف الطيلسان فى فمها وأوشكت أن تختنق . وكان أول ما عملته أن أخرجت الطيلسان بيدى لأساعدها على التنفس ، فلما أخرجته استرعى نظرى النقش الذى فى طرفه .

وقلبتها بلطف على ظهرها ، ووضعت يدى على صدرها لأهدئها ، ولألقى نظرة على وجهها . وكانت عيناها متسعتين يستبين الناظر فيهما أثر الرعب ، ولم يكن ينقطع لها الصراخ النفاذ المصمُّ للآذان ، وكانت تكرر تلك الألفاظ : زوجى ، وأبى ، وأخى ! ثم تعد من واحد إلى اثنى عشر وتقول بعدها : صه ! وتسكت بعدئذ لحظة لا أكثر يبدأ بعدها الصراخ النفاذ مرة أخرى ، وتكرر قولها : زوجى ، وأبى ، وأخى ! وتعِدُّ من واحد إلى اثنى عشر ، وتقول : صَه ! وكان هذا كله يجرى على وتيرة واحدة بلا تغيير فى ترتيبه أو فى طريقة النطق به ، ولا تنقطع عنه إلا فى فترة السكوت المنتظمة .

وسألت : « كم من الوقت مضى عليها وهى على هذه الحال ؟ » .

وسأميز الأخوين أحدهما عن الآخر بأن أطلق على أحدهما اسم الأخ الأكبر ، والآخر اسم الأخ الأصغر ؛ وأقصد بالأكبر ذلك الذى كان له معظم السلطان ، وكان أكبرهما هو الذى أجاب بقوله : « منذ هذه الساعة أو نحوها فى الليلة الماضية » .

— « وهل لها زوج ، وأب ، وأخ ؟ » .

— « لها أخ » .

— « ألا أتحدث الآن إلى أخيها ؟ » .

فأجاب بازدراء شديد : « لا » .

— « هل لها صلة حديثة بالرقم ١٢ ؟ » .

فأجاب أصغر الأخوين وهو فارغ الصبر : « بالساعة الثانية عشرة » .

وقلت لهما ويداى لا تزالان على صدرها : « إنكما لترىان يا سيدىّ أننى لا أستطيع أن أكون ذا فائدة ما بالوضع الذى أنا فيه الآن ! ولو أننى عرفت ما قد جئت لأفعله لأحضرت معى ما أنا بحاجة إليه ؛ أما والحال كما هى الآن ، فلا بد من ضياع بعض الوقت ، وليس فى مقدورنا الحصول على دواء فى هذا المكان المنعزل » .

ونظر أكبر الأخوين إلى أصغرهما ، فقال هذا فى كبرياء وغطرسة : « إن لدينا هنا علبة أدوية » ؛ ثم تناولها من خزانة ، ووضعها على النَّضَد . . .

وفتحت بعض قنينات الدواء ، وشممت بعضها ، ووضعت أغطيتها على شفتىّ ، ولو أننى كنت أريد أن أستعمل أى شىء غير الأدوية المسكنة ، وهى نفسها أدوية سامَّة ، ما استعنت بشىء مما قدمه لى .

وسألنى الأخ الأصغر قائلا : « أتشكُّ فيها ؟ »

فأجبته قائلا : « إنك لترى ياسيدى أننى سأستعملها » ولم أقل غير هذا .

وجعلت المريضة تبتلع القدر الذى أردت أن أعطيها إياه من الدواء ، بعد أن بذلت فى سبيل ذلك جهداً كبيراً ، ولم يكن ابتلاعه بالأمر الهين عليها . وإذ كنت عازماً على أن أكرر الجهد بعد وقت قصير ، وكان لا بد لى من مراقبة أثر الدواء فى المريضة ، فقد جلست على حافة السرير .

وكانت تقوم بخدمتنا امرأة وَجلة (هى زوجة الرجل الذى تركناه فى الطبقة السفلى) ، وقد ابتعدت عنا فى أحد أركان الحجرة .

وكان البيت رطباً متهدماً ، يبدو على أثاثه عدم العناية به ، ما سكنه مَنْ فيه إلا منذ وقت قريب ، ولا يقيمون فيه إلا مؤقتاً . وقد علقت بعض الأستار القديمة السميكة على نوافذه لتخفف من حدة الصرخات ، التى ظلت

تتوالى بنظامها المعتاد ، مصحوبة بالنداء : زوجى ، وأبى ، وأخى ! وبالأرقام من واحد إلى اثنى عشر يتبعها قولها : صه .

وكانت النوبة حادة ، فلم أشأ أن أحل الأربطة التى تقيد الذراعين ، ولكنى استوثقت أنها لا تؤلم المريضة . وكان كل ما خلته من دلائل التشجيع فى حالها أن وَضْعَ يدى على صدرها قد هدأها بعض الشىء ، وأن هذا الهدوء كان يستمر فى كل مرة بضع دقائق . غير أن يدى لم يكن لها أثر فى الصراخ ، فقد كان ينبعث منها فى انتظام دونه انتظام خطار الساعة !

وإذ كان ليدى هذا الأثر فى المريضة (كما أظن) ، فقد جلست إلى جانب سريرها نحو نصف ساعة ، والأخوان ينظران إلىّ ، وأخيراً قال أكبرهما :

« إن بالدار مريضاً آخر » .

وارتعت لهذا القول ، وسألته : « هل هى حال عاجلة ؟ » .

فأجاب فى غير اكتراث : « يحسُن بك أن ترى ذلك بنفسك » . ثم أمسك بمصباح . . . .

وكان المريض الثانى يرقد فى حجرة خلفية يصعد إليها بدرجات أخر ، أشبه بعلِّية فوق إسطبل ، وكان لجزء من هذه الحجرة سقف منخفض مطلى بالجص ، أما بقيتها فكانت مكشوفة إلا من عروق من الخشب . وكان فى هذا الجزء المكشوف دريس وقش وخشب للوقود وكمية من التفاح المغطاة بالرمل ، وكان لا بد لى أن أمر بهذا كله كى أصل إلى المريض . إن ذاكرتى فيما أرويه قوية دقيقة لا تخوننى ، وأنا أمتحنها بذكر هذه التفاصيل ، وكأنى أشاهدها الآن أمامى فى حجرة الباستيل الضيقة بعد عشر سنين أو نحوها من بداية سجنى ، كما كنت أشاهدها طوال تلك الليلة .

وكان غلام قروى وسيم — لا يتجاوز السابعة عشرة من العمر على أكثر تقدير — يرقد على كومة من الدريس وتحت رأسه وسادة ، وكان مستلقياً على ظهره ، مصرًّا على أسنانه ، ويده اليمنى مقبوضة على صدره ، وعيناه تحدقان إلى أعلى . ولم أستطع رؤية مكان جرحه حين ركعت على إحدى ركبتى ، وانحنيت فوقه ، ولكنى أدركت أنه كان يلفظ أنفاسه الأخيرة من جرح أصيب به من آلة حادة .

وقلت له : « إنى طبيب أيها الشاب المسكين ، دعنى أفحص جرحك » .

« لست أريد أن يفحصه أحد ، فدعه وشأنه » .

وكان الجرح تحت يده ، فلاطفته حتى سمح لى أن أزيحها عنه . وكان من أثر طعنة سيف ، تلقَّاها من مدة تتردد بين عشرين وأربع وعشرين ساعة ، ولكن حذق الطبيب مهما بلغ لم يكن لينجيه من الموت لو أنه عنى به على الفور . وكان وقتئذ يحتضر . ولما التفت إلى أكبر الأخوين رأيته يحدق بعينيه فى هذا الغلام الوسيم المحتضر كأنه طير جريح أو أرنب برية لا مخلوق آدمى .

وسألته : « كيف وقع هذا يا سيدى ؟ » .

— « إنه كلب صغير مسعور ! إنه رقيق أرض ! لقد أرغم أخى على أن يستلَّ سيفه ، فسقط مدرجاً بدمه بطعنة من سيف أخى ؛ فقد طعنه طعنة السيد الشريف » .

ولم يكن فى هذا الرد أثارة من شفقة ، أو حزن ، أو أية صفة مماثلة لهما من صفات الإنسانية . ولاح لى أن المتحدث كان يقرُّ بأن من غير المرغوب فيه أن يموت فى ذلك المكان هذا الصنف المخالف له من الخلائق ، وأنه لو مات الميتة المألوفة التى تلقاها الحشرات من أمثاله لكان ذلك خيراً ، ولم يكن يطوف بقلبه طائف من شعور الرحمة بهذا الغلام أو بمصيره .

وكانت عينا الغلام قد اتجهتا نحوه وهو يتحدث ، ثم عادتا فاتجهتا نحوى على وجل :

— « أيها الطبيب ، إن هؤلاء النبلاء متكبرون أشد الكبرياء ؛ ولكننا نحن الكلاب من السوقة نتكبر

أحياناً ، إنهم ينهبوننا ، ويعتدون علينا ، ويضربوننا ، ويقتلوننا ، ولكنهم يجدون فينا أثارة من الكبرياء باقية أحياناً ؛ وهي ... هل رأيتها يا دكتور ؟ » .

كان الصراخ يصل إلى آذاننا في هذا المكان وإن كان بُعد المسافة قد أضعفه ، وكان هو يشير إليه كأن أخته معنا .

فأجبته : « نعم رأيتها » .

— « إنها أختي يا دكتور » .

— « لقد كان هؤلاء النبلاء ينالون حقوقهم المهينة ، فيعتدون على كرامة أخواتنا وعفتهن ، كانوا يفعلون هذا منذ سنين طوال ، ولكن كان من بيننا بنات فاضلات . إني أعرف هذا ، وقد سمعت أبي يقصه علينا . وكانت أختي فتاة فاضلة ، وقد خطبها لنفسه شاب صالح مثلها ، من زارعيه فنحن كلنا من زارعي هـذا الرجل الواقف هناك ، وهذا الآخر أخوه وهو شر جماعة الأشرار كلهم » .

وكان الغلام يلاقي أشد الصعاب وهو يستجمع قواه الجسمية ليستطيع الحديث ، ولكن روحه كانت تتحدث وتؤكد الألفاظ تأكيداً رهيباً .

« ولقد نهبنا ذلك الرجل الواقف هناك — كما ينهبنا جميعاً نحن عامة الكلاب أولئك السادة الأعلون — فيفرض علينا أفدح الضرائب بلا رحمة ، ويرغمنا على العمل في خدمته بلا أجر ، ويضطرنا إلى أن نطحن حبوبنا في طاحونته ، ونطعم المئات من طيوره الداجنة من محصولاتنا القليلة ، ويحرم علينا أن نحتفظ لأنفسنا بشيء من الطيور وإلا جوزينا على ذلك أقسى الجزاء ، ويسلط علينا ضروباً من السلب والنهب بلغ من شدتها أن أحدنا إذا نال قطعة من اللحم كان يأكلها وهو خائف وجل ، بعد أن يغلق عليه باب بيته ومصاريع نوافذه خشية أن يراه أشياع ذلك الرجل فيختطفوها منه . أقول : إن ما كنا نلاقيه من سلب ونهب وما يصبونه علينا من عذاب ، وما نعانيه من ذلة وفقر ، قد بلغ من الشدة درجة قال معها آباؤنا : إن من أعظم البلايا أن يولد للإنسان طفل في هذا العالم ، وإن أحب الدعوات التي نوجهها إلى المولى جلت قدرته ألا تلد نساؤنا وأن ينقرض جنسنا البائس من العالم ! » .

لم أكن قد شاهدت في يوم قبلُ الإحساس بالظلم يعبر عنه أحد مثل هذا التعبير الملتهب . نعم إني كنت أظن أن هذا الظلم كامن في مكان ما في الشعب ، ولكني لم أره قط ينفجر حتى شاهدته في هذا الغلام المحتضر .

ثم واصل الشاب حديثه قائلا : « ومع ذلك فقد تزوجت أختي يا دكتور . وكان حبيبها المسكين مريضاً في ذلك الوقت ، وقد تزوجته كي تعنى به وترعاه في كوخنا ، كوخ الكلاب ، كما يحلو لذلك الرجل أن يسميه . ولم يمض على زواجهما إلا بضعة أسابيع حتى وقعت عليها عين أخي هذا الرجل ، فأعجب بها ، وطلب إلى هذا الواقف هنا أن يعيرها إياه ، نعم يعيرها إعارة السلع ! وهل للأزواج قيمة عندنا ؟ ولم يمانع الرجل ، ولكن أختي كانت عفيفة صالحة ، وكانت تكره أخاه بقدر ما أكرهه أنا . أتعلم ماذا فعل الرجلان لكي يحملا زوجها على أن يؤثر فيها ، فتجيب ذلك الوغد إلى ما طلب ؟ »

واتجهت عينا الصبي في تلك اللحظة إلى أحد الأخوين الذي كان ينظر إلينا ، وقد كانتا من قبل تحدقان في عيني ، وأيقنت من ملامح وجهيهما أن كل ما قاله صحيح . وفي مقدوري أن أرى الآن ذينكما الصنفين المتعارضين من الكبرياء يواجه أحدهما الآخر حتى في ظلام الباستيل : أرى كبرياء الشريف الذي يتسم بعدم المبالاة والاكتراث ، وكبرياء القروي وعواطفه تطؤها الأقدام ، وأرى معهما الرغبة الشديدة في الانتقام .

« وأنت تعلم يا دكتور أن من حق أولئك الأشراف أن يشدونا نحن عامة الكلاب إلى عرباتهم ويسوقونا

كما تساق السائمة ، وقد شدّاه فعلاً وساقاه ، وتعلم أن أن من حقهم أن يبقونا فى أرضهم طوال الليل نُسكت نقيق الضفادع حتى لا تؤرقهم وتنغص عليهم نومهم الهنىء . وقد أخرجاه فعلا فى برد الليل وضبابه المضر بصحته ، وعادا فشدّاه إلى العربة أثناء النهار ، ولكن الزوج ظل معانداً ، ولم يرض قط بما طلباه . وأخرجاه يوماً فى منتصف النهار ليتناول الطعام — إذا استطاع أن يجد طعاما — فأخذ يبكى وينتحب ، يبكى اثنتى عشرة مرة ، واحدة كلما دق الجرس ، ثم مات على صدرها ! »

وكان الغلام يحدثنى هذا الحديث ، وهو يغالب الموت ، ولم يكن شىء يحفظ عليه حياته إلا تصميمه على أن يفضى إلىّ بكل ما قاساه من ظلم ، فكان يردّ عنه أشباح الموت المتجمعة أمامه ، بالقوة التى يحتفظ بها بيده اليمنى مقبوضة ، يغطى بها جرحه .

« ثم انتزع أختى قسراً بموافقة ذلك الرجل ، بل بمساعدته أيضاً ؛ على الرغم مما قالته لأخيه — ولن أخفى عنك طويلا ما قالته يا دكتور — أخذها ليستمتع بها لحظة من اللحظات ، وشاهدتها بعينى تمرُّ بى فى الطريق . ولما حملت النبأ إلى بيتى تحطم قلب والدى ، ولم ينطق بكلمة واحدة مما كان يفيض به صدره ، وأخذتُ أختى الصغرى (لأن لى أختاً أخرى) وأبعدتها عن متناول الرجل الأثيم ، فى مكان لن نكون فيه من خدمه ومواليه ، ثم اقتفيت أثر الأخ إلى هذا المكان ، وفى الليلة الماضية تسلقت جدران هذه الدار وسيفى مسلول فى يدى : أين الكوّة العليا ؟ لقد كانت هنا فى مكان ما ؟ » .

وكان الصبى يتحدث وقد أخذ ضياء القمر يتضاءل فى ناظريه ، والعالم تضيق رقعته من حوله ، وتلفتُّ حولى فرأيت الدريس والقش متناثرين على الأرض كأن شجاراً قد حدث فوقهما .

« وسمعتنى أختى وجرت إلىّ ، فأمرتها ألا تقترب منا حتى يلقى منيته . وأقبل هو وألقى إلىّ أولاً ببعض النقود ثم ضربنى بسوط ؛ ولكنى ، وإن كنت من عامة الكلاب ، هجمت عليه لأرغمه على أن يستلّ سيفه — دعه يحطم ذلك السيف إرْباً إرباً — السيف الذى تخضّب بدمى . واستلّ سيفه ليدافع عن نفسه ، وهجم علىّ بكل ما أوتى من مهارة تبتغى الموت .

وكانت عيناى قد وقعتا قبل لحظات قليلة على شظايا سيف محطم ، متناثرة بين الدريس ؛ وكانت شظايا سيف من سيوف الأشراف ، كما وقعت فى مكان آخر على سيف قديم خيل إلى أنه سيف جندى عادى .

« والآن ارفعنى بين يديك يا دكتور ، ارفعنى بين يديك . أين هو ؟ » .

فقلت له وأنا أسند جسمه ظنًّا منى أنه يشير إلى غريمه .

— « إنه ليس هنا » .

— « هو ! مهما يكن من كبرياء هؤلاء الأشراف ، فإن ذلك الرجل يخشى أن يرانى . أين الرجل الذى كان هنا ؟ أدِرْ وجهى نحوه » .

وصدعت بالأمر ، فرفعت رأس الصبى على ركبتى ، ولكنه هبطت عليه فى تلك اللحظة قوة غير عادية فهمّ واقفاً واضطررت أنا أيضاً للوقوف وإلا فما استطعت أن أسنده .

وقال الصبى وهو يلتفت نحوه وعيناه مفتوحتان كأوسع ما يستطيع ، ويده مرفوعة إلى أعلى : « يا مركيز ! إذا جاء ذلك اليوم الذى سوف تسأل فيه عن هذه الأعمال كلها ، فسأدعوك أنت وأهلك ، إلى آخر نفر من قومك الأشرار ؛ لتحاسبوا على ما جنت أيديكم .

إنى أرسم هذا الصليب بالدم فى اتجاهك لأشهد الله على ما أنا فاعل . وفى تلك الأيام التى ستحاسبون فيها على هذه الأعمال كلها سأدعو إلى ذلك الحساب أخاك ، وهو شرُّكم جميعاً أيها الأشرار ؛ لكى يحاسب عليها منفرداً ، وأرسم هذا الصليب بالدم عليه شاهداً على ما أنا فاعل » .

وغمس الصبي يده مرتين فى جرح صدره ، ورسم بسبابته علامة الصليب فى الهواء ، ووقف هنيهة وسبابته مرفوعة ، فلما سقطت سقط معها ، وأسجيته على الأرض ميتاً ! . . . .

ولما عدت إلى فراش الفتاة وجدتها تهذى كما كانت تهذى من قبل ، وعرفت أن هذه الحال قد تدوم عدة ساعات ، وأنها ستنتهى فى أغلب الظن بصمت القبر .

وكررت الدواء الذى أعطيتها إياه من قبل ، وجلست على حرف السرير حتى مضى الشطر الأكبر من الليل ، ولم تخف قط حدة صراخها ولم يضعف نفاذه ، ولم تخطئ قط فى ترتيب ألفاظها أو يقل وضوحها ؛ فقد كانت على الدوام : « أخى ، وأبى ، وزوجى !— واحد ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، ثمانية ، تسعة ، عشرة ، أحد عشر ، اثنى عشر ، صه ! »

ودامت هذه الحال ستاً وعشرين ساعة بعد اللحظة التى وقعت فيها عينى عليها . وكنت قد جئت إلى المكان وغادرته مرتين ، وعدت إلى الجلوس بجانبها ، حين بدأت تحتضر ، وفعلت الشيء القليل الذى كان فى مقدورى أن أفعله لمساعدتها فى تلك الظروف ، ولم تلبث أن سكنت حركتها سكون الموتى .

وبدا لى كأن الرياح والأمطار قد سكتت آخر الأمر عقب عاصفة مروعة طويلة ، وفككت ذراعيها ، ودعوت المرأة التى كانت بالدار كى تساعدنى على أن أمدها على فراشها وأسدل عليها أثوابها التى مزقتها ، وعرفت فى هذه اللحظة أنها فى بداية حملها ، كما فقدت أيضاً ما كان يجيش فى صدرى من أمل ضعيف فى إنقاذها .

وسألنى المركيز الذى لا أزال أسميه الأخ الأكبر — وقد دخل علينا الحجرة فى تلك اللحظة بحذاءيه الطويلين بعد أن ترجل عن جواده : « هل ماتت ؟ » — فأجبته : « لم تمت بعد ولكنها فى ظنى موشكة أن تموت » .

وقال وهو ينظر إلى بشيء من الدهشة : « ما أكبر ما تحتويه أجسام أولئك العامة من قوة ! » .

فأجبته قائلاً : « ما أعظم ما يبعثه الحزن واليأس من قوة ! » .

وضحك أول الأمر من ألفاظى ثم قطب جبينه ؛ وجاء بكرسى ، فقربه منى حتى لمست ساقه ساقى ، وأمر المرأة بالخروج ، وقال بصوت خافت : « دكتور ، لما وجدت أخى فى مأزق مع أولئك الفلاحين ، أوصيته بأن يستدعيك لمعونته . وأنت رجل حسن السمعة ، ولا تزال شاباً تتطلع إلى مستقبل باهر ، وأكبر الظن أنك غير غافل عن مصالحك . إن ما رأيته هنا شيء يرى ، ولا يتحدث عنه أبداً » .

وكنت فى هذه الأثناء أستمع إلى تنفس المريضة ، وتحاشيت أن أجيب بشيء ما ، فواصل حديثه قائلا : « هل تتفضل فتعيرنى سمعك يا دكتور ؟ . . . »

فقلت له : « سيدى ، إن مهنتنا لتقضى علينا بأن نحتفظ على الدوام بسرية ما يفضى به المرضى إلينا » .

واصطنعت الحذر فى ردى ؛ لأن ما رأيته وسمعته قد أقلق بالى . وكان من الصعب على أن أتتبع تنفسها ، ومن أجل هذا حاولت جس نبضها ومعرفة حال قلبها . وكل ما استطعت أن أتبينه أن الحياة ما تزال تدب فى جسمها ، ولكنى لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا . وتلفت حين عدت إلى موضعى فرأيت الأخوين كليهما يحدقان فى . .

إنى أجد الآن صعوبة كبيرة فى الكتابة ، فالبرد قارس ، وأنا أخشى أن تقع على عين فألقى فى غيابة جب تحت الأرض فى الظلام الحالك ؛ ولهذا سأختصر قصتى . بيد أننى لا أحس فى ذاكرتى بأى اضطراب أو عجز ، بل إن فى مقدورى أن أتذكر ، وأن أدون بالتفصيل كل كلمة من الحديث الذى دار بينى وبين هذين الأخوين .

وامتدت حياة الفتاة أسبوعاً ، وكان فى مقدورى فى

اوأخر ساعاتها أن أفهم بعض مقاطع الكلام الذى نطقت به لى ، وذلك بأن أقرّب أذنى من شفتيها ؛ فقد سألتنى : أين هى ؟ ورددت على سؤالها ، وسألتنى : من أنا ؟ فأجبتها ؛ ولكنى عبثاً حاولت أن أعرف منها اسم أسرتها ؛ ذلك أنها كانت تهزّ رأسها هزّا ضعيفاً وهى مستلقية على وسادتها ، واحتفظت بهذا السر كما احتفظ به أخوها .

ولم أجد فرصة أوجه إليها فيها أى سؤال آخر ، حتى أبلغت الأخوين أنها مسرعة إلى منيّتها وأنها لن تعيش أكثر من يوم واحد . ومع أن أحدًا لم يكن يقترب منها حتى ذلك الوقت إلا أنا والمرأة التى فى الدار ، فإن أحد الأخوين كان يحرص دائماً على أن يجلس خلف الستار على طرف السرير حين أكون إلى جانبها . فلما وصل الأمر إلى ما وصل إليه بدا لى أنهما لا يأبهان بما عسى أن يدور بينى وبينها من حديث ؛ كأنى أنا أيضاً أوشك أن أموت ، وقد خطر ذلك ببالى فعلا .

وكنت ألاحظ على الدوام أن كبرياءهما قد جرح لأن الأخ الأصغر (كما أسميه أنا) قد بارز فلاحاً ، وأن هذا الفلاح كان غلاماً . وكان يبدو لهما أن الشىء الوحيد الذى تأثر به كلاهما فى هذا الحادث كله هو أن هذه المبارزة مزرية بمنزلة أسرتهما ، وأنها عمل سخيف فى حد ذاته . وكنت كلما لحتُ عينى الأخ الأصغر ، أدركت من منظرها أنه يبغضنى أشد البغض ؛ لأنى عرفت من الصبى ما عرفت ؛ ومع هذا فقد كان أكثر أدباً وملاطفة لى من أخيه الأكبر ، لقد تبينت هذا ، كما تبينت أنى ثقيل بغيض من أكبرهما .

وقامت المريضة قبيل منتصف الليل بساعتين ، فى مثل الدقيقة التى شاهدتها فيها أول مرة بحسب ما دلت عليه ساعتى . وكنت وحدى إلى جانبها حينما مال رأسها بلطف إلى أحد الجانبين واختتمت بذلك أحزانها ومظالمها .

وكان الأخوان ينتظران وقتئذ فى حجرة بالطبقة السفلى ، يتعجلان الرحيل عن ذلك المكان . ولقد سمعتهما ، وأنا وحدى إلى جانب سرير المريضة يضربان حذاءيهما بسوطيهما ويتمشيان على مهل فى الحجرة .

وقال الأخ الأكبر حين دخلت عليه : « لقد ماتت أخيراً ؟ » .

فأجبته : « نعم ، ماتت » .

فقال لأخيه وهو يلتفت إليه : « أهنيك بهذا يا أخى ! » .

وكان قبلئذ قد عرض علىّ مالاً أرجأت تناوله ، والآن قدم إلىّ كيساً مليئاً بالنقود الذهبية ، تناولته منه ، ولكنى وضعته على النضد ، وكنت قد فكرت فى هذا الأمر ، وقررت ألا أقبل شيئاً .

وقلت له : « أرجو أن تقبل عذرى ؛ فلست أستطيع قبول شىء من المال فى هذا الظرف » .

وتبادلا النظرات ، ولكنهما حنيا رأسيهما لى كما حنيت رأسى لهما ، وافترقنا دون أن ينطق أحدنا بكلمة أخرى . .

إنى الآن متعب أشد التعب ، متعب ، متعب ، منهوك الجسم من فرط البؤس ، ولا أستطيع قراءة ما كتبته بهذه اليد النحيلة .

وفى الصباح الباكر وجدت كيس الذهب عند باب مسكنى ، فى صندوق صغير كتب اسمى على غطائه ، وقد فكرت من أول الأمر وأنا قلق مضطرب فيما يجب علىّ أن أفعله ، واستقر رأيى فى ذلك اليوم على أن أبعث برسالة خاصة إلى الوزير أصف فيها حال المريضين اللذين استدعيت لزيارتهما ، والمكان الذى ذهبت إليه ، وظروف الحالين مفصلة . وكنت أعرف ما لرجال الحاشية من نفوذ ، وما يتمتع به الأشراف من حصانة ، وتوقعت ألا يعرف أحد شيئاً عن الحادث ؛ ولكنى كنت أحبُّ أن أريح ضميرى فحسب . واحتفظت بالأمر سرًّا مكتوماً لم أبح به لأحد حتى زوجتى نفسها ، وقررت كذلك أن أذكر هذا فى رسالتى للوزير ، ولم أكن

أخشى أى خطر حقيق يحيق بى ، ولكننى كنت أدرك أنى قد أعرّض غيرى من الناس للخطر إذا ماظنُّ أنهم يعرفون ما أعرف .

وكانت مشاغلى كثيرة فى ذلك اليوم ، فلم أستطع إتمام رسالتى فى تلك الليلة ، ومن أجل هذا استيقظت قبل موعدى المعتاد فى صباح اليوم التالى كى أتمها ، وكان ذلك آخر يوم فى العام ، وكانت الرسالة أمامى بعد أن فرغت تواً من كتابتها ، حينما أبلغت أن سيدة فى انتظارى ، وأنها تريد أن تتحدث إلىّ . . .

إننى أحسُّ الآن بعجزى عن مواصلة العمل الذى أخذت نفسى به ؛ فالبرد قارس ، والظلام حالك ، وحواسى مخدرة ، وقد استولت علىّ كآبة رهيبة .

وكانت السيدة فى مقتبل العمر ، رائعة الجمال ، ولكنها لم تكن ممن يظن أنهن سيطول عمرهن . وكانت شديدة الاضطراب ، وقدمت نفسها إلىّ قائلة : إنها زوجة المركيز إفريمند . وذكّرنى ذلك باللقب الذى كان الغلام يخاطب به الأخ الأكبر وبالحرف الذى كان مطرزاً على الطيلسان ، ولم أجد قط صعوبة فى أن أستنتج أن هذا الاسم هو للسيد الذى رأيته من وقت قريب .

ولا تزال ذاكرتى قوية دقيقة ، ولكننى لا أستطيع كتابة ما دار بينى وبين السيدة من حديث ؛ فأنا أظن أنى أراقَب مراقبة أشد من ذى قبل ، وإن كنت لا أعرف أية الساعات أراقب فيها . وكل ما أستطيع أن أقوله ، هو أن السيدة قد استنتجت بعض أجزاء الحقائق الهامة فى هذه القصة وكشفت عن بعضها الآخر ، وعرفت ما كان لزوجها من يد فيها ، وأنه قد التجأ إلىّ ، غير أنها لم تكن تعرف أن الفتاة قد قضت نحبها ، وقالت لى وهى فى شدة الحزن : إنها ترجو أن تظهر لها سرَّ ما فى طبيعة النساء من عطف وحنان ، وأنها تأمل أن تُنجى من غضب الله البيتَ الذى تبغضه الكثرة المعذبة من زمن بعيد . وكان لديها من الأسباب ما يحملها على الظن بأن أختاً صغيرة لهذه الفتاة لا تزال حية ، وكانت شديدة الرغبة فى أن تمد يد المعونة لهذه الأخت . وكل ما كان فى وسعى أن أخبرها به هو : أن لهذه الفتاة أختاً ؛ أما ما عدا هذا فلم أكن أعرف عنه شيئاً ؛ وقالت : إن الذى أغراها بالمجىء إلىّ ، معتمدة على ثقتى ، هو رجاؤها فى أن أخبرها باسم هذه الأخت وبالمكان الذى تقيم فيه ، مع أننى لا أزال حتى هذه الساعة المنحوسة أجهل كليهما . . .

إننى أحسُّ بالعجز عن كتابة هذه القصاصات من الورق ، ولقد أخذت منى واحدة منها بالأمس ، وحُذرت العودة إلى الكتابة ؛ ولهذا لا بد لى من الفراغ منها اليوم . لقد كانت هذه السيدة صالحة رحيمة ، ولم تكن موفقة سعيدة فى زواجها ؛ وأنّى لها هذه السعادة ؟ فقد كان أخو زوجها يبغضها ولا يثق بها ، وكان نفوذه كله فى غير صفها . وكانت هى ترهبه أشد الرهبة ، كما ترهب زوجها نفسه . ولما أوصلتها إلى الباب رأيت فى عربتها طفلا ، طفلا جميلا ، بين الثانية والثالثة من العمر .

وقالت وهى تشير إليه والدمع يترقرق من عينيها : « من أجل هذا يا دكتور لا أتردد فى فعل كل ما أستطيع لأصلح ما يسعنى أن أصلحه من فساد ، وإن لم يسعنى منه إلا القليل ، وبغير هذا لا يستطيع أن يكون سعيداً فيما سوف يرثه من أسرته . وإننى لأحسُّ بأنه إذا لم يكفّر عن هذا الذنب التكفير الواجب البرىء ، فإنه سوف يقع كله عليه فى يوم من الأيام . وسيكون أول ما أوصيه بأن يفعله فى حياته إذا ما استطاع أن يعثر على هذه الأخت ، هو أن يهب لها ولأسرتها المظلومة ما بقى لدىّ مما أستطيع أن أصفه بأنه ملك لى ، وهو لا يزيد على ثمن عدد قليل من الحلى ، يضاف إلى حنان أمه الميتة وحزنها » . ثم قبّلت الطفل وقالت وهى تدلله : « إنى أفعل هذا من أجلك يا بنى العزيز ، ستكون معيناً أميناً

يا شارل الصغير ؟ » . وردّ عليها الطفل فى شجاعة : « نعم سأكون » ! وقبلتُ يدها ، واحتضنتْه بين ذراعيها ، وغادرت المكان وهى تدلله وتلاطفه ، ولم أرها بعد ذلك أبداً . وإذ كانت قد ذكرت اسم زوجها وهى تعتقد أنى أعرفه ، فإنى لم أذكر هذا الاسم فى رسالتى ، وغلفت الرسالة ، ولم أجد من أثق به فى إيصالها إلى صاحبها ، فأوصلتها بنفسى فى ذلك اليوم .

وفى تلك الليلة نفسها ، وهى آخر ليلة فى العام ، وقرب الساعة التاسعة ، دق الباب الخارجى رجل فى ثياب سود ، وطلب أن يرانى ، وصعد الدرج وراء خادمى الشاب إيرنست دفراج . ولما دخل هذا الخادم الحجرة التى كنت أجلس فيها مع زوجتى — زوجتى أحب الناس إلى قلبى ، زوجتى الشابة الإنجليزية الجميلة — شاهدنا معه الرجل الذى كنا نظنه عند الباب واقفاً من ورائه لا ينبس ببنت شفة .

وقال : « إن ثمة حالا عاجلة فى شارع سانت أونوريه » ، وأضاف أنها لن تكلفنى كثيراً من الوقت لأن لديه عربة فى انتظارى .

وجاءت بى العربة إلى هذا المكان الذى أنا فيه الآن ، جاءت بى إلى قبرى ؛ ذلك أنى لم أكد أبتعد عن بيتى حتى شُدَّ قناع أسود من خلفى على فمى كتم به صوتى ، وأوثق ذراعاى ، وعبر الأخوان الطريق من ركن مظلم ، وأكدا بإشارة واحدة أننى الرجل المطلوب ، وأخرج المركيز من جيبه الرسالة التى كتبتها ، وأطلعنى عليها ، وحرقها فى لهب مصباح أمسكه له شخص آخر ، وأطفأ الرماد بقدمه ، ولم ينبس فى أثناء ذلك ببنت شفة ، وجىء بى إلى هذا المكان ، جىء بى إلى قبرى الذى أدفن فيه حياً ! .

ولو أن الله جلت مشيئته قد بعث الرحمة فى قلب أحد الأخوين ، فى خلال تلك السنين الرهيبة ، فَمَنَّ علىّ بخبر أياً كان عن زوجتى العزيزة — وإن لم يزد هذا الخبر على أن أعرف منه أحية هى أم ميتة — لظننت إذن أنه لم يدعهما لأمرهما ، ولكننى أومن الآن أن إشارة الصليب الأحمر ستفعل فعلها فيهما ، وأنهما ليس لهما نصيب من رحمته سبحانه وتعالى .

ومن أجل هذا فإنى أنا ألكسندر مانت السجين المعذب أبعث بشكواى منهما ومن أبنائهما وذريتهما إلى آخر فرد من نسلهما فى تلك الليلة الأخيرة من عام ١٧٦٧ التى أقاسى فيها من الآلام ما لا يحتمله بشر ، أبعث بشكواى ليحاسبوا عليها جميعاً فى ذلك اليوم المشهود الذى يُسأل فيه كل إنسان عما جنت يداه ، أبعث بشكواى إلى خالق الأرض والسماء .